وَقد فازَ مَنْ في الحَرْبِ أصْبحَ جائلاً
يُطَاعِنُ قِرْناً وَالغُبَارُ مُطَنِّبُ[١]
نَديمي! رَعاكَ اللَّهُ قُمْ غَنِّ لي عَلى
كُؤوسِ المَنايا من دمٍ حينَ أشرَبُ[٢]
وَلا تَسْقِني كَأسَ المُدامِ فإنّها
يَضِلُّ بها عَقْلُ الشّجاعِ وَيَذْهبُ[٣]

أحنّ إلى ضرب السيوف

[الطويل]

أحِنّ إلى ضَرْبِ السّيوفِ القَواضِبِ
وَأصْبو إلى طَعْنِ الرّماحِ اللّوَاعبِ[٤]
وَأشتاقُ كاساتِ المَنونِ إذا صَفَتْ
وَدارَتْ على رَأسي سهامُ المَصَائبِ[٥]

(١) الرابح هو من قاتل وجال في ساحة الوغى وصرع الأقران في حومة الميدان والغبار يتصاعد حاجباً المتقاتلين، لا من بكى واستبكى.
(٢)، (٣) يخاطب الشاعر من يُشاركه الحديث أن يُغني له في حفل الموت وحيث تتوالى الكؤوس، إنها ليست كؤوس الخمر، ولكنّها كؤوس الدم. كؤوس الانتصار والبطولة؛ وذاك مدعاة فرحة عنترة. أما المدام فالشاعر منها براء، فهي مضيعة للعقل والرجولة الحقّة والشجاعة.
(٤) السيوف القواضب: القاطعة البتّارة. حنين جارف وشوق لا حدودَ له إلى تلك السيوف البتّارة يستعملها عنترة في ميادين الفرحة والانتصار على الأبطال، وإلى رماح تخترق الأجساد وتتلاعب بالأكباد، فتسيل الدماء.
(٥) وثمة شوق لدى الشاعر لشراب طعمه طعم الشؤم والموت في ساحة المعركة، إنها كاسات تدور ويتهاداها الأبطال في وسْط الزحام حيث تنزل الويلات على من قُدّر له موت زُعاف وويلات عِظام.

وَيُطْرِبُني وَالخَيْلُ تَعْثُرُ بالقَنَا
حُداةُ المَنَايا وَارْتِعاجُ المَوَاكِبِ[١]
وَضَرْبٌ وَطَعْنٌ تحتَ ظلّ عَجاجَةٍ
كجُنح الدُّجى من وَقع أيدي السَّلاهبِ[٢]
تَطيرُ رُؤوسُ القَوْمِ تحْتَ ظَلامِها
وَتَنقضُّ فيها كالنّجوم الثّوَاقِبِ[٣]
وَتَلْمَعُ فيها البِيضُ منْ كُلّ جانبٍ
كَلَمْعِ برُوقٍ في ظلامِ الغياهِبِ[٤]
لَعَمْرُكَ إنّ المَجْدَ وَالفَخْرَ وَالعُلا
وَنَيْلَ الأماني وَارْتِفاعَ المَرَاتِبِ[٥]
لِمَنْ يَلْتَقي أبْطَالَهَا وسَرَاتَهَا
بقَلبٍ صَبورٍ عندَ وَقْعِ المَضَارِبِ[٦]

(١) ارتعاج المواكب: تداخل المقاتلة ببعضها بعضاً وتزاحمها بكثرة. أذن الشاعر يروق لها غناء من نوع خاص، صهيل الخيول وهي تزدحم متلقية بصدورها الرماح الدامية؛ إنها أغنية الموت تدفع بالمتقاتلين إلى الهلاك بلا هوادة وبلا رحمة.

(٢) عجاجة، مفرد عجاج: الغبار. جُنح الدجى: الهزيع من الليل. السلاهب، مفردها سلهب: إنه الطويل من الخيل على وجه الأرض. وما يُطرب الشاعر تبادل المتبارزين الطعن والضرب بآلات الحرب والغبار يرتفع في السماء كأنه ليل يحول دون الرؤية، والأبطال تمتطي خيولاً طويلة.

(٣) الثواقب، واحدها ثاقب: المشعّة ضياءً. لا يزال الشاعر يصف اشتداد الوطيس؛ رؤوس تتطاير في عتمة المعركة التي ارتفعت غبارها تعانق السماء وفجأة تهبط تلك الرؤوس إلى الأرض كأنها نجوم تهوي سراعاً على صعيد المعركة.

(٤) البيض: السيوف. الغياهب، واحدها غيهب: الليل المظلم القاتم. السيوف تشرق أنوارها فتنير الأجواء في ليل شديد العتمة كأنها بروق تصحبها الرعود، ولكنها ليست بروق رحمة ولكنها بروق نِقمة وموت.

(٥)، (٦) الشاعر يقسم بأن المجد وما يلحق به من مراتب رفيعة للأبطال =

وَيَـبْـنـي بـحـدّ الـسّـيْـفِ مَـجْـداً مُـشَـيَّـداً
عـلـى فـلَـكِ الـعـلـيـاءِ فَـوْقَ الـكـوَاكِـبِ[١]
وَمــن لــمْ يُــرَوِّ رُمــحَــهُ مــن دَمِ الــعِــدا
إذا اشْـتَـبـكَـتْ سُـمـرُ الـقَـنـا بـالـقـوَاضِـبِ[٢]
وَيُـعـطـي الـقَـنـا الـخـطّـيَّ فـي الـحـرْبِ حـقَّـهُ
وَيَـبـرِي بـحـدّ الـسّـيْـفِ عُـرْضَ الـمـنـاكـبِ[٣]
يَـعـيـشُ كـمـا عـاشَ الـذّلـيـلُ بـغُـصّـةٍ
وَإن مـاتَ لا يُـجـرِي دمـوعَ الـنـوَادِبِ[٤]
فَـضَـائِـلُ عَـزْمٍ، لا تُـبـاع لِـضـارِعٍ؛
وأسْـرَارُ حَـزْمٍ، لا تُـذاعُ لِـعـائِـبِ[٥]

= الصابرين المنتصرين في دروب المجد ساعة اشتداد القتال الذين يحسنون استعمال السيوف، هم في الحقيقة نبلاء وشرفاء.

(١) هؤلاء هم البناة الحقيقيون الأبطال الذين يشيدون أمجادهم بحدّ السيف في سماء البطولة على جباه الكواكب المشعّة بالأنوار.

(٢)، (٣) القنا: الرماح، القواضب، واحدها قاضب: السيف القاطع البتّار. وإن لم يكن المرء قادراً على استعمال الرماح كهؤلاء الذين تكلّلت رؤوسهم بأكاليل الغار ولم تكن رماحهم دائمة العطش يرويها أصحابها بدماء أعدائهم إذا اشتجرت الرماح السمراء بالسيوف اللامعة. ولم يكن كهؤلاء الأبطال الكرماء يعطون الرماح حقّها ولا يبخسون منه شيئاً، وهم يبرون الرؤوس عن أجسادها كبرى القلم.

(٤) فعيشه عيش ذليل والغصّة تخنق فيه كرامة ماتت في أعماقه، حتى إذا ما مات فلن يجد من يندبه ويبكيه، لأنه لم يحم هؤلاء النسوة ولم يُسعفهنّ ويحمهن، فبأيّ شيء يُبادلنه؟

(٥) إن ما تمتع به هؤلاء الأبطال مزايا عالية من المكرمات لا يستحقّها الجبناء الضعفاء، وتلك أسرار لم يسمع بها الضعفاء، فهم دائمو ذكر معايب الأبطال الحقيقيين غيرة وحسداً.

بـرَزْتُ بِـهـا دَهْـراً عـلـى كـلِّ حـادِثٍ،
ولا كُـحْـلَ إلَّا مـنْ غُـبـارِ الـكَـتـائـبِ[١]
إذا كَـذَبَ الـبـرْقُ الـلّـمُـوعُ لـشَـائِـمٍ
فـبـرْقُ حُـسـامـي صَـادقٌ غـيـرُ كـاذِبِ[٢]

حسناتي ذنوب

يصف حاله ويشكو زمانه:

[الخفيف]

حَـسَـنَـاتـي عِـنْـدَ الـزّمـانِ ذُنُـوبُ،
وَفَـعَـالـي مَـذَمّـةٌ وَعُـيُـوبُ[٣]
وَنَـصـيـبـي مِـنَ الـحَـبـيـبِ بِـعَـادٌ،
وَلِـغَـيْـرِي الـدّنُـوُّ مِـنْـهُ نَـصـيـبُ[٤]

(١) إنها معايشة دائمة للأحداث الجسام التي تتوالى في حياة الأقوياء فيعتادون على مجابهتها والانتصار في ميدانها حيث يرتفع غبار الجيوش على صعيد المعركة.

(٢) الشائم: هو من يستقصي البرق مستعلماً عن مكان سقوط المطر. قد تُبرق السماء وتُرعد معلنة عن سقوط الخير؛ وقد يخطئ الشائم في تقديره. ولكن سيف عنترة صادق الوعد ولا يُخلف وعداً.

(٣)، (٤) ينعى الشاعر على الزمان قِلّة الإنصاف، فما يقدّم من جليل الأعمال والحسنات لا يُكافأ عليها بشيء بل تستحيل ذنوباً يجازى عليها شرّ الجزاء وعيوباً يستحقّ عليها الذمّ واللوم. حتى الحبيب يمنح الشاعر الصدّ والهجر، والأمر يهون لو أنه اكتفى بذلك بل يمعن بالكيد فإذا بالحبيب يدني منه الغرباء ممّا يزيد ألمه وحزنه.